الدرس (٠٣٣) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد وصلنا في قراءتنا في هذا الكتاب المبارك كتاب رياض الصالحين لأبي زكريا النووي رحمه الله تعالى إلى باب المبادرة إلى الخيرات والحث على الإقبال عليها وأن من توجه لخير فعليه أن يُقبل عليه بالجد والاجتهاد فإنه لا يدري ماذا يعرض له.

قال المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى:

١٠- باب في المبادرة إلى الخيرات
وحثِّ مَن توجَّه لخير على الإقبال عليه بالجدِّ من غير تردُّد

هذا بابٌ عظيمٌ عقده المُؤَلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، لبيان أهمِّيَّة المبادرة إلى الخيرات، وأنه متى انفتح للعبد بابٌ من أبواب الخير، أو تيسَّر له مجالٌ من مجالات البِرِّ؛ فليقبل عليه، ولا يسوِّف ويؤجِّل بل يبادر إليه ويسارع، وكم من أناسٍ خسروا أعمالًا كثيرة، وأبوابًا من البِرِّ عديدةً بسبب التَّسويف والتَّأجيل؛ لأنَّه كُلَّما انفتح له بابٌ من الخير أجَّله إلى الغد أو ما بعد غدٍ، أو يقول: سوف أفعله فيما بعد، وهكذا تمضي عليه الحياة، وهو لا يزال يؤخِّر ويؤجِّل، فتفوته خيرات وخيرات.

ولهذا يقال: الإنسان ابن يومه، فاليوم الَّذِي مضى لا يجده، واليوم الآتي قد لا يدركه، فخير له أن يغتنم اليوم الَّذِي هو فيه.

روي عن عَلِيِّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه كَانَ يَقُولُ: «اعْمَلْ لِكُلِّ يَوْمٍ بِمَا فِيهِ تَرْشُدْ»[1].

وعَنِ الْحَسَنِ البصريِّ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: «إِيَّاكَ وَالتَّسْوِيفَ، فَإِنَّكَ بِيَوْمِكِ وَلَسْتَ بِغَدِكَ، فَإِنْ يَكُنْ غَدٌ لَكَ فَكِسْ فِي غَدٍ كَمَا كِسْتَ فِي الْيَوْمِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَدٌ لَمْ تَنْدَمْ عَلَى مَا فَرَّطْتَ فِي الْيَوْمِ»[2].

ومعنى كس أي: كن كيِّسًا فطنًا حاذقًا.

ومن حكم ابْنِ الْمُعْتَزِّ رَحِمَهُٱللَّهُ قوله: «تَنَاوَلِ الْفُرْصَةَ الْمُمْكِنَةَ، وَلَا تَنْتَظِرْ غَدًا فَمَنْ لِغَدٍ مِنْ حَادِثٍ بِكَفِيلٍ»[3].

وفي هذا المعنى يقول النَّاظم:

مَضَى أَمْسُكَ الْمَاضِي شَهِيدًا مُعَدَّلًا... وَأَصْبَحْتَ فِي يَوْمٍ عَلَيْكَ شَهِيدُ

فَإِنْ كُنْتَ بِالْأَمْسِ اقْتَرَفْتَ إِسَاءَةً... فَثَنِّ بِإِحْسَانٍ وَأَنْتَ حَمِيدُ

وَلَا تُرْجِ فَعَلَ الْخَيْرِ يَوْمًا إِلَى غَدٍ... لَعَلَّ غَدًا يَأْتِي وَأَنْتَ فَقِيدُ

فَيَوْمُكَ إِنْ أَعْتَبْتَهُ عَادَ نَفْعُهُ... عَلَيْكَ وَمَاضِي الْأَمْسِ لَيْسَ يَعُودُ

ولهذا؛ فإنَّ من الأمور المُهِمَّة الَّتِي ينبغي أن يعتني بها المسلم، أن يبادر إلى الخيرات، والمبادرة: هي المسابقة والمسارعة، وعدم التَّأخير، ولا أنفع للعبد في هذا المقام من أخذ النفس بالجد من غير تردد كما قال المصنف رحمه الله تعالى.

وحقيقة الجدِّ كما يقول ابن القيم: "هو صدق العمل وإخلاصه من شوائب الفتور ووعود التسويف والتهاون وهو تحت السين وسوف وعسى ولعل فهي أضر شيء على العبد وهي شجرة ثمارها الخسران والندامات".

---

(١) رواه الخطيب البغداديُّ في اقتضاء العلم العمل (١٨٩).

(٢) رواه ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (٨)، والخطيب البغداديُّ في اقتضاء العلم العمل (١٩٩).

(٣) رواه الخطيب البغداديُّ في اقتضاء العلم العمل (١٨٩).

وقد عقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه التَّرجمة حثًّا على المبادرة إلى الخيرات وأن مَن توجَّه لخير عليه أن يقبل عليه بالجدِّ من غير تردُّد، وساق تحتها جملةً من الدَّلائل على ذلك من الكتاب والسُّنَّة.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

استباق الخيرات يكون بالمسارعة إليها، وعدم التَّردُّد في القيام بها، وأن تكون نفس العبد مقبلةً على الخير غير محجمة، ففيها حثٌّ على المبادرة إلى الخيرات، والمسارعة إلى فعلها، والتَّحذير من التَّسويف والتَّأخير والتَّأجيل.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإنَّ الاستباق إليها، يتضمَّن فعلها، وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومَن سبق في الدُّنيا إلى الخيرات، فهو السَّابق في الآخرة إلى الجنَّات، فالسَّابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنَّوافل، من صلاة، وصيام، وزكوات وحجٍّ، وعمرة، وجهاد، ونفع متعدٍّ وقاصر»(٤).

قال المصنف رحمه الله تعالى:

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

في هذه الآية: أنَّ من أوصاف عباد الله المُتَّقين: المسارعة إلى الخيرات، والمبادرة إليها، طلبًا لنيل رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والفوز بغفرانه ورحمته جَلَّ وَعَلَا، ومَن سابق في هذه الدُّنيا إلى الخير، كان في الآخرة من السَّابقين إلى الكرامة ورفعة الدَّرجات؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل.

---

(٤) انظر: تيسير الكريم الرَّحمن للسِّعديِّ (ص٧٢).

قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} أي إلى الأعمال الصالحة في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات العالية في الجنة.

قال الربيع بن أنس رحمه الله: "السابقون إلى إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم في الدنيا هم السابقون إلى الجنة في العقبى".

قال القرطبي رحمه الله في تفسيرها: "أي سارعوا إلى ما يوجب المغفرة وهي الطاعة. قال أنس بن مالك ومكحول في تفسير {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} معناه إلى تكبيرة الإحرام. وقال علي بن أبي طالب : إلى أداء الفرائض. وقال عثمان بن عفان : إلى الإخلاص. وقال الكلبي : إلى التوبة من الربا. وقيل : إلى الثبات في القتال. وقيل غير هذا. والآية عامة في الجميع ، ومعناها معنى {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}".

ومن الآيات التي فيها الثناء على المبادرين إلى امتثال الأوامر المسارعين إلى الخيرات قوله تعالى : {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات } . وقوله تعالى : {أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون}.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٨٧- (وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ: فَالْأَوَّلُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥)).

في هذا الحديث حثٌّ على المبادرة بالأعمال الصَّالحة، والمسارعة إلى الخيرات، وعدم تأجيل شيءٍ منها.

وفي هذا السِّياق حذَّر النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الفتن، الَّتِي وصفها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنَّها كقطع اللَّيل المظلم، ووصف الفتن بهذه الصِّفة، يدلُّ على أنَّ حال الإنسان في الفتن، يكون

---

(٥) رواه مسلم (١١٨).

كحال الشَّخص الَّذِي في ليل مظلم، لا يرى طريقًا، ولا يهتدي إلى جادَّة، وربَّما يقع في حفرةٍ، أو في مكان هَلَكَةٍ، لأنَّه ليلٌ مظلم، لا نورَ فيه ولا ضياء، فمن الفتن ما تكون بهذه الصِّفة.

وتوصف الفتن أيضًا بأنَّها عمياء بكماء صمَّاء؛ لأنَّ الإنسان لا يرى فيها الهدى، ولا تستبين له الطَّريق، فيهلك فيها كثير من النَّاس، إلَّا مَن وفَّقهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للمبادرة للأعمال، والمسارعة إليها؛ فإنَّهم يحفظون بحفظ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لأنَّ مَن حفظ الله بفعل الأوامر، وطاعة الله، والبعد عن الحرام؛ حفظه الله ووقاه وسلَّمه ونجَّاه.

ولهذا؛ يحتاج العبد إلى أن يعوِّد نفسه على المبادرة إلى الأعمال، ليسلم من الفتن المدلهمَّة، الَّتِي هي كقطع اللَّيل المظلم، حتَّى إنَّ النَّبِيَّ ﷺ وصف حال الرَّجل فيها، بأنَّه يصبح مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، أي: بسبب الفتن وقوَّتها، وشدَّة جرفها للنَّاس، ونقلها لهم من الإيمان إلى الكفر ، بحيث إنَّ الرَّجل يكون في الصَّباح من أهل الإيمان، وفي المساء من أهل الكفر، أو يكون في المساء من أهل الإيمان، وفي الصَّباح يكون من أهل الكفر، بسبب الفتن الَّتِي واجهته ففتنته عن دينه.

وتصبح حال كثير من النَّاس في مثل هذه الفتن أن يرخص الدِّين عندهم، وهذه مصيبة عظيمة! ألَّا يبالي المرء بضياع دينه، أو ضياع شيءٍ منه، حتَّى قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**» أي: متاع من الدُّنيا قلَّ أو كثر، فيتنازل عن دينه ويبيعه من أجل متاع من الدُّنيا زائل.

بينما المؤمن الصَّادق دينه أغلى شيءٍ عنده، وأثمن شيءٍ ، ولا يساوم في دينه؛ لأنَّ أثمن شيءٍ يملكه هو دينه، فلا يمكن أن يبيعه بالدرهم أو الدينار.

قال النووي رحمه الله: "معنى الحديث الحثُّ على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغالِ عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر . ووصف صلى الله عليه وسلم نوعـًا من شدائد تلك الفتن ، وهو أنه يمسي مؤمنـًا ثم يصبح كافراً أو عكسه . شك الراوي وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب" . أعاذنا الله والمسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن".

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٨٨- (الثَّانِي: عَنْ أَبِي سِرْوَعَة -بكسر السِّين المهملة وفتحها- عُقْبَةَ بْنِ الحَارِثِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بالمَدِينَةِ العَصْرَ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا، فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ، فَخَرَجَ عَلَيهِمْ، فَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ عَجِبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ، قَالَ: «**ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تِبْرٍ عِنْدَنَا فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٦).

وفي روايةٍ لَهُ: «**كُنْتُ خَلَّفْتُ فِي البَيْتِ تِبْرًا مِنَ الصَّدَقَةِ فَكَرِهْتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ**». «التِّبر»: قِطَعُ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ).

في هذا الحديث أن الصَّحابة رضي الله عنهم رأوا النَّبِيَّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قام من مصلَّاه بعد صلاة العصر مباشرة بعد أن سلَّم مسرعًا، ولم يكن من عادته عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ الإسراع بالقيام عقب السَّلام، ولهذا تعجَّبوا من سرعته ﷺ في تلك المرَّة، وأيضًا علم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ منهم ذلك التَّعجُّب، فبيَّن لهم السَّبب الَّذِي لأجله قام مسرعًا.

وهذا يستفاد منه فائدة تتعلَّق بأئمَّة المساجد: أنَّ الإمام ينبغي أن يعوِّد نفسه على المكث في مصلَّاه بعد الصَّلاة، ذاكرًا الله، ليستفيد منه جماعة المسجد، فإنَّ المأمومين في المسجد يستفيدون من طمأنينة إمامهم، وعدم استعجاله بالانصراف؛ لأنَّ الإمام قدوة لمَن وراءه، فإذا كان من عادة الإمام أن يقوم مسرعًا من مصلَّاه، فإنَّ غالب مَن وراءه سيقومون؛ لأنَّ إمامهم قد قام، لكن إذا اطمأنَّ الإمام في مصلَّاه وبقي فيه، فإنَّ مَن وراءه من المُصَلِّين مع مرِّ الأيَّام يستفيدون من هذه الطُّمأنينة ويكون لها أثر عليهم.

والنَّبِيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لم يكن من عادته أن يقوم مباشرة بعد أن يُسَلِّم، بل كان يبقى في مصلَّاه ذاكرًا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

---

(٦) رواه البخاريُّ (٨٥١)، (١٤٣٠).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه دليل على أنَّ الإسراع بالقيام عقب السَّلام من غير تمهُّلٍ لم يكن من عادة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولهذا تعجَّبوا من سرعته في هذه المرَّة، وعلم منهم ذلك، فلذلك أعلمهم بعذره»(٧).

قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تِبْرٍ عِنْدَنَا فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ».

التِّبر: هو القطع من الذَّهب والفضَّة، فذكرها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقام لأجلها مسرعًا، وأمر بقسمتها.

قال: «فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي» أي يمنعني ويشغلني التَّفكُّر فيها عن التَّوجُّه والإقبال على الله تعالى، وقيل: المعنى أنَّ تأخير الصَّدقة يحبس صاحبها يوم القيامة في الموقف، وهذا فيه: أنَّ أموال الصَّدقة يُبادر في إيصالها لأهلها، والمستحقِّين لها.

وجاء في روايةٍ أخرى للحديث أوردها المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «كُنْتُ خَلَّفْتُ فِي البَيْتِ تِبْرًا مِنَ الصَّدَقةِ فَكَرِهْتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ» وهذه الرِّواية تفيد أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قام مسرعًا من أجل هذا التِّبر الَّذِي خلَّفه في البيت، أي: تركه في البيت، فسارع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى الأمر بقسمته.

فيستفاد من ذلك: المبادرة إلى فعل الخير، وألَّا يُؤَجَّل شيء منه، بل يسارع اغتنامًا للوقت، ومبادرة إلى الخيرات.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٨٩- (الثَّالِث: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فَأَيْنَ أَنَا؟ قَالَ: «فِي الجَنَّةِ»، فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ كُنَّ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨)).

هذا مثال من واقع الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في مسارعتهم إلى الخيرات، ومبادرتهم إلى فعلها.

---

(٧) انظر: فتح الباري لابن رجب الحنبليِّ (٧/ ٤٤٢).

(٨) رواه البخاريُّ (٤٠٤٤)، ومسلم (١٨٩٩).

فهذا الصَّحابيُّ الجليل رضي الله عنه وأرضاه، ولم يُسمَّ في هذا الحديث وهو عُمَير بن الْحُمَامِ الأنصاريُّ السّلميُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما ذكره بن إسحاق، قال يخاطب النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ)، أي: في هذه المعركة معركة أحد، (فَأَيْنَ أَنَا؟)، أي: ماذا سيكون مصيري يوم القيامة، قال: «**فِي الجَنَّةِ**» وقد أجابه ﷺ بالبتِّ بأنَّه في الجنَّة؛ لأنَّه علم منه الإخلاص في الجهاد، ومن قُتِل كذلك دخل الجنَّة، فألقى ذلك الرَّجل تَمَرَاتٍ كُنَّ في يده، ثمَّ قاتل حتَّى قُتِل.

ففيه: مسارعة هذا الصَّحابيِّ للعمل الَّذِي يوصل إلى الجنَّة، بحيث أنَّه لم يمهل نفسه حتَّى يأكل تلك التَّمَرات الَّتِي كانت في يده، فألقاها حرصًا على المسارعة إلى الخيرات، والمبادرة إليها.

ونسأل الله عز وجل أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يصلح لنا شأننا كله؛ إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.